الباب الرابع

شيخ الإسلام

١٨٩٩ – ١٩٠٥

١٣١٧ – ١٣٢٣

(إن في الإسلام من ضروب الهداية ما يعد من الأصول الخمسة بالإسلام كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبي والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار).

محمد عبده

رأيتك والأبصار حولك خشع فقلت أبو حفص ببرديك أم علي

بهذا التصور الديني، وتشبيه الإمام بعمر وعلي، عبر حافظ إبراهيم عن الشعور العام يوم ولي الإمام الإفتاء بعد القضاء، وله صلة بأبي حفص (عمر) في شجرة النسب، وعهد بعلي في تصوفه ونهج بلاغته. وبهما معا في الفقه والقضاء. وهما القاضيان، والمفتيان، وإماما الاجتهاد في الإسلام.

ولي الإمام الوظيفة بعد أن أقرت له الحكومة بحق العودة إلى وظيفة المستشار إذا أراد، فاحتفظ باستقلاله في الإفتاء لمجتمع صح منه العزم على إصلاحه:

لقد أجاءت الحملة الفرنسية مع ضباطها وعلمائها نساءهم، لتشكيل مجتمع أوربي ومجتمع علمي (أكاديمي) في المستعمرة (مصر). وادعى نابليون في منشور للمصريين أنه مسلم قدم ليرفع الظلم عنهم، ثم عاجلته مقادير أوربا فرحل مذموما لكنه خلف وراءه ذكريات مجتمع فيه تخليط.

ثم ولى محمد علي ضباط نابليون المسرحين قيادات جيشه وأسطوله وفتح نوافذ مصر واسعة لأصحاب الامتيازات وثبتت "مجالس التجارة" أقدامهم فتوسعت تجاراتهم فتقاطروا على الأرض الطيبة، وفي حواشيهم دواعي الفتنة، من شواطئ البحر الأبيض وجزره.

وأخيرا أقبل الجيش البريطاني سنة ١٨٨٢ بالفساد الأشد، فنفقت بضاعة شذاذ الآفاق في الأسواق، وانتشرت أخلاط من المهارات والمغامرات والتجارات تلتهم ثمرات كل شيء في مجتمع مسته الشياطين وصيره الغزاة نهبة المنتهب.

كان التاريخ الهجري هو التاريخ فوضع بجواره التاريخ الميلادي. ثم رفع تاريخ هجرة الرسول! وكان الميقات عربيا فصار أفرنجيا! واهتمت الحكومة بالآثار الفرعونية لينزح بها الأجانب إلى الخارج! وطبقت القوانين الفرنسية على المصريين في محاكمهم فلم تقدر على جعلهم أوربيين ولم تتركهم على حالهم، فصاروا كالغرباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وأعطى المتمصرون الفرنجة، والمتفرنجون العرب، معنى مرذولا لقول إسماعيل "نحن لم نعد أفريقيين نحن من أوربا" فغزا الخمارون اليونانيون والمرابون اليهود أقصى الأرض في الدلتا والصعيد وتبحبحوا في الريف والعواصم تحت أعلام المحاكم المختلطة فارتهنوا الملكية العقارية. وخالطوا الأسر وباعوها شهواتها، فتكاثرت المسارح والملاهي وتناثرت الخمارات على قوارع الطرقات، وألف أصحاب الثقافة والجاه ابتذال أنفسهم وتبديد أوقاتهم على الأرصفة، وأحل الميسر في النوادي الخاصة وعلى مستوى الأمة تحت اسم "اليانصيب". وفعل التقليد أفاعيله فخلع رجال ونساء ثوب الحياء وأمسك الكبراء بأذيال الغزاة الطويلة ولبس الآخرون أزياءهم القصيرة أو المثيرة. تعرى بعض على الشواطئ وتخنث كثيرون في المراقص. وفتحت للرقص مدارس. واستوردت البيوت الناعمة مربيات للبنين والبنات من أوربا!.

وأقيمت الحفلات الراقصة في قصر الخديو، ووصفها ووصف الخمر "شاعر البلاط" أحمد شوقي بدم بارد وضمير جامد [٧٠] والشعراء يتبعهم الغاوون. والناس على دين ملوكهم.

---

(٧٠) يقول أبو نواس:

حامـــل الهـــوى تعـــب يســـــــتحفه الطـــــــرب

فيقول شوقي:

واختلط القراء بنجوم الغناء وتعاجم الناس في بيوتهم ومعاملاتهم، وتكلموا الفرنسية، ثم الإنجليزية، في مدارس التبشير ثم في كل مكان. وأصبح اللحن ظرافة والركاكة طرافة.

وطاولت الرءوس العارية أو المغطاة بالقبعات في الوزارات والشركات والأوبرا والمسرح رءوسا عليها الطرابيش والعمائم، وباهت الأجنبيات بأثواب تشف أو تصف أو تكشف المفاتن، صواحب الحبرات والبراقع. والبراقع بين تركية بيضاء قصيرة أو مصرية سوداء طويلة! وأصبح وجه المجتمع كهيئة "صندوق الدنيا".

وفي هذه البيئة الوبيئة سلط جيش الاحتلال وأعوانه من غير المصريين الإرهاب والإفقار والجهل والتفرقة على أمة منهزمة. ومكنوا لأصحاب الخرافات ليستتيم الناس وينصرفوا إلى داخل أنفسهم، يألمون ويجترون آلامهم..

لقد قاوم المصريون الغزو الصليبي وانهزم الغزاة عنهم لأن المجتمع المصري كان أعلم وأقوى وأقوم. لكن العلم والقوة والمال – اليوم – كلها أوربية. وبعوث الحكومة والأفراد تنزي إلى إنجلترا وفرنسا لتوضع في أيديها مفاتح التغيير والتقليد إذ تعود.

واستطرد الإنجليز من جسم الجماعة إلى لسانها يريدون أن يقتلعوه بجعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم في المدارس. وإلى قلبها يريدون أن يقفوه بإلغاء المحاكم الشرعية، فارتاع الرأي العام فعرضوا على مجلس الشورى مشروع قانون لتعيين مستشارين من المحاكم الأهلية في المحكمة العليا الشرعية. فاستقال الشيخ حسونة النواوي من وظيفتي المفتي وشيخ الأزهر ولم ينثن الإنجليز إلا بعد أن رفضه مجلس الشورى بالإجماع.

***

حـــف كأســـها الحبـــب فهـــــي فضـــــة ذهـــــب

بل يقول:

رمضـان ولـى هاتهـا يـا سـاقي مشـــتاقة تســـعى إلـــى مشـــتاق
حمـراء أو صـفراء، إن كريمهـا كالغيـــد. كـــل مليحـــة بمـــذاق

أدرك محمد عبده ما تدركه الأمة كلما كرثتها كارثة ألا نجاة لها إلا بالرجوع إلى شريعتها والحفاظ على قيمها الذاتية، وفي الأزهر قلاعها الحصينة، وندب لمقاومة الفساد نفسه. لكن الخديو نفس بوظيفتي الشيخ حسونة عليه مجتمعتين، وقصر تعيينه على وظيفة الإفتاء – وهو مجرد إبداء آراء – وعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي شيخا للأزهر سنة ١٣١٧ فمات بعد قليل فعين محله الشيخ سليم البشري.

وأيقن العضو العامل في مجلس الإدارة، أن الخديو – وقد رفض تعيينه شيخا للأزهر – إنما أراد أن يستبقي في يده الأعنة فلا يرخيها للمصلحين. وشهد التاريخ أن الخديو يحرم المشيخة ومن يتولونها – لا محمد عبده – شرف مشاركتهم في اللقب للعالم العامل، الفارس المتصوف، الراكض والناس يمشون، المعطى مرتباته لمن يستحقون، وإذا دعا لواحد من تلاميذه بخير التمس له مزيدا من الفاقة:

١- يرونه بأعينهم فوق صهوة جواده قاصدا إلى المحكمة أو الأزهر من دواره في الناصرية. وهذه بقية الفروسية الأولى، لكنها كذلك استمرار للبساطة الأولى واجتناب لأبهة المواكب وبيان للناس أن الشيخ يعايش قومه.

ولما قيل له إن المشايخ لا يسيغون هذا أجاب: بل يليق بهم أن يكونوا كالغانيات يجررن الذيول ويتوكأن على السواعد عند الركوب والنزول. مثل (ستي هانم)!

٢- ويراه الناس بين أظهرهم يسير على قدميه، بعد دروسه المسائية عدة كيلو مترات في الصيف والشتاء ليركب القطار من محطة كوبري الليمون إلى داره في عين شمس، دون أن يستعمل وسائل الانتقال الفخمة الواقفة على باب الرواق العباسي في انتظار تلاميذه، فإذا ركب فعربة أجرة. وإذا سئل قال (إنني لو صرت خليفة المسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ولا المثنى عند الحاجة).

٣- وقد يجيعه جهد النهار أو مجلس التدريس أو طول الطريق فيميل إلى دكان فيشتري علبة بسكويت فيأكل منها قضمة قضمة مع رفيق الطريق. قال له الرفيق: مفتي المسلمين يأكل في الطريق؟ قال: لأنني أجوع في الطريق. نحن قد فاتنا عشاء الدار الآن.

وما كان الأكل وجبة طعام بل بضع قضمات بأطراف الأسنان وراء ستار الظلام.

لقد كان – رضي الله عنه – يأبى أن يوقظ أهل بيته حتى لا يشركوه متاعب تأخيره، وأن يعجل برجوعه حتى لا يضيع حقا للمسلمين.

٤- ويكره كسوة التشريفة التي يلبسها المفتي في احتفالات القصر فلا يدخلها داره. بل يودعها دار بنته زوج محمد بك يوسف وكانت في جوار قصر عابدين. فإذا كان يوم "تشريفات" لبسها هناك وخلعها هناك.

٥- وعاد من رحلته إلى السودان ونزل بالمنيا فشكا إليه قاض شرعي ازدياد عمله لكثرة دخول غير المسلمين في الإسلام على يديه والتزامه تعليمهم الدين، فقال له: يكفي أن تقول للمسلم الجديد: صل وزك وصم وحج! قال القاضي ليس بد من أن أعلمه الطهارة.

قال إمام المسلمين: قل له اغسل وجهك.. وقال القاضي: لابد أن نعلمه حدود الوجه ليعرف من أين يبدأ وينتهي..

قال إمام المسلمين: سبحان الله قل له يغسل وجهه. كل إنسان يعرف "حدود" وجهه من غير حاجة إلى "مساح"!

رواها لطفي السيد ليقارن بين العقليتين:

٦- وأهدى حافظ إبراهيم ترجمته لكتاب "البؤساء" (لفكتور هيجو) (إلى موئل البائس ومرجع اليائس. فكان من رده على الهدية قوله له (تقول إن الذي وصل بصاحب الكتاب اشتراكك معه في البؤس.. سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما بدأ. وأن يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم، والسلام).

وحدث حافظ أن الإمام، مع هذه الدعوة، له أو عليه، اشترى من (البؤساء) نسخا يكفي ثمنها حافظا سنوات. لكن حافظا كأستاذ كان معطاءا لا يبقى على شيء! يقول عنه عبد العزيز البشري في المرآة بعد عشرين عاما ونيف.

[.. إذا طالت يده الألف (جنيه) جن جنونه أو ينفقها في يوم.. فهو ما يبرح يطلب البؤس طلبا.. وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام]..

٧- قال له ذات يوم: إن لك أعداء كثيرين فأجابه: ولم "تنسى" أصدقائي يا "حافظ"! هل تعلم أحدا له مالي من الأصدقاء؟ فتذكر "الحافظ" وقال اللهم لا.

***

بهذه النفس الحانية، والتوكل والخشوع والتقشف والعقل المتفتح، بدأ الشيخ مرحلة الذروة في حياته متطوعا متبرعا، يتصدع قلبه من خشية الله، ويتفصد جبينه عرقا، ليختم حياته كما بدأها مع القرآن، في حلقة بالأزهر.

ونشر سجل الدروس الشهيرة في تاريخ الأزهر، وعاد الشباب للجامع الألفي العمر، على مدار أيام خمسة في كل أسبوع. في كل يوم ساعتان. للتفسير درسان. ولأسرار البلاغة المكملة للتفسير ثلاثة.

obeikandl.com

فصل في (المفسر)

نحن الآن في الجامع الأزهر: ألف عام – إلا شيئا – تفتح صدرها لإمام أعمال وأقوال، يدخل التاريخ العلمي من أعظم أبوابه، بابي القرآن ولسانه العربي. ويضرب الأمثال من نفسه في منبر التدريس ليشهده الجميع فيبذلوا قصاراهم.. قادم من ميادين العظائم، وحضارات ثلاث قارات، ومحنتي حرب وسلام، ومن التأليف والتعليم والقضاء والإفتاء ومجلس إدارة الأزهر! قدم ليرقى المعراج الأعلى ليفوق نفسه، فيتكلم عن الله، بعد قرون لم يتصد للتفسير فيها أحد.

البلاغة عنده (منتهى الكمال في إصابة الحق بالدليل مع شيء من حسن الأسلوب وجودة التأليف في اللفظ) وهو إمام بلاغة، يعلم أمته المعنى القرآني وأسرار لسانه العربي، وما في نظمه من جمال وجودة، والقرآن حق ودليل حق. يوقظ النفوس لتتطهر وتقاوم الخطر، ويحرك الأفكار للابتكار واستباق التقدم.

ولا أحد، كالإمام، يستطيع أن يهز أنفس الناس بمعانيه وألفاظه ويجمع بين الفحوى القرآني ووجدان العصر وعقول البشر. وهو القائل (إن الإسلام. قد قاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته). ولا أحد كمثله يستطيع أن يؤلف بين المنقول والمعقول أو يرفع مشيخة الإسلام إلى مستوى تفسيره.

ولئن يَسُرت عليه المقاومة المنظمة للعدو، إذ يحمل رايات الجمعية الخيرية الإسلامية، إنها لأقصد وأبعد من إسخاط العدو وأوسع مدى في الإصلاح عندما تكون درسا في أسرار البلاغة وإعجاز القرآن وتفسيره.

لقد أنشأت الدولة الفاطمية الأزهر سنة ٣٦١ هـ لتنشر فقه الشيعة، فصيرته مصر مدرسة لكل المذاهب. وصيرته فريضة الجهاد منطقا لمقاومة التتار القادمين من الشرق والصليبيين والفرنسيين والإنجليز القادمين من الغرب. وسيقاوم الشيخ فيه الاحتلال البريطاني بالكتاب والسنة واللسان العربي والتاريخ الإسلامي، وهذه مقومات الوجود العربي، يضع بها أقدام قومه على الطريق ولديه المؤهلات:

فهو فقيه حنفي من (أهل الرأي) علامة في العبادات والمعاملات وعالم لغوي وأديب مقطوع القرين [٧١]. وخبير بالسنة والسيرة، وبالتاريخ الإسلامي والعالمي، ودنيا الناس.

---

(٧١) لا يتسع المقام للكلام عن تبخر الإمام في اللغة أو في الأدب أو عن أسلوبه. وجملة القول إنه كان في الذروة من كل ذلك منذ عهد الطلب، ثم ازداد بدراسات المقامات، ونهج البلاغة وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، كما فرض على نفسه وهو في أعلى وظائفه أن يحضر امتحان طلاب دار العلوم وكانوا أمل اللغة العربية ولا يزالون.

وأسلوبه من أعلى أساليب اللغة العربية في كل أعصرها. بلغة مرحلة فمرحله، وإن شئت قلت سنة فسنة. ويتبدى ذلك في الفرق بين سجعه في رسالة الواردات وبين ترسله الرصين في الحاشية على شرح الداوني، وبين هذا وبين أسلوب الوقائع المصرية العصري المترسل المنساب في كل باب، لتقتدي به الصحف.

وما هي إلا فروق سنوات خمسة في بواكير الشباب تزداد جمالا وكمالا بالمعارف المكتسبة في المواقف والمراكز المتنوعة، وبخاصة ما أضافت إليه صياغة الأحكام من ضبط ودقة، ودراساته الفرنسية المتعمقة، وأسفار في القارات الثلاث، من حلاوة وطلاوة تعلمها عليه المنفلوطي ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز البشري ومصطفى صادق الرافعي، ويمكن تتبع آثار في كتابتهم بكل وضوح. وأظهر مثل لأسلوبه (رحلة صقلية، وترجمته الذاتية، في الشكل والمضمون. وقد استكثرنا من الشواهد منها في هذا الكتاب. يسأله تلميذه حافظ إبراهيم وهو الشاعر الفحل في اللغة العربية لبيان ما أعجز بحثا لدى المتخصصين من معنى قول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

فجيبه من فوره:

(يريد أنهم إذا غضبوا سلوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم فكان بريقها كالهتك لحجاب الشمس التي يظهر به نورها ويتألق شعاعها إلى أن يمكنوها من صدور أعدائهم فتخرج وهي تقطر دما، ويخفى ذلك البريق. فالضمير في قوله (أو قطرت دما) عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة.

والبيت أحد بيتين قيل فيهما لبشار بن برد.

إنك تجئ بالشعر المتفاوت. تقول شعرا نثير به النفع ونخلع القلوب:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

وتقول:

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لا نجد رجلا رزق فهما في هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الإمام محمد عبده. ولقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها كما منحه البصر في أمور الدنيا. ومن الحق على المسلمين أن يترسموا خطواته للإصلاح الديني إذا أرادوا إعزاز دينهم ورفعة أتباعه في دنياهم..).

وإلى جوار الإمامة الدينية والبلاغة، منهجه العلمي بكمال التحري والتحقيق، وأمانة الاستخلاص واستمرار التنقيح والتحقيق، والاستماع ممن خالفه – كما يشترط الإمام الشافعي في المنهج العلمي ومحمد عبده هو القائل: (ما وعظك مثل لائم قومك مثل مقاو٩.

لقد أوفد مبعوثا إلى اسطنبول لتحقيق نسخة من (أسرار البلاغة) جاءته من طرابلس الشام مع وجود النسخة التي درسها في بيروت في الثمانينات ليقدم الكتاب إلى مجلس الأزهر، وليستلفت إليه نظر الأمة بتقريظ نشره المنار – يقول فيه: (لم أر كتابا في هذا الفن لا بقلم

ربـــــاب ربـــــة البيـــــت تصـــب الخـــل فـــي الزيـــت
لهـــا عشـــر دجاجـــات وديـــك حســـن الصـــوت

وأجاب بشار:

(لكل شيء وجه وموضع: الأول جد، والثاني قلته لجاريتي، فهي تجمع البيض وتحفظه وهذا عندها أحسن من (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (لامية امرئ القيس).

وكان الإمام محسودا على أسلوبه يقول: (يقولون إن ملكة البيان سهلة التحصيل وإنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا، ويكتبوا فيجيدوا، لا ورك إنهم لأعجز شيء عن أدنى مراتب البلاغة، وإن أدمغتهم محشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته، ولكنها خلو من ذوق البيان، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة.. إن فن الإنشاء عزيز المنال..

قضيت في تعلم الإنشاء خمسة عشر عاما. وما أظن أن ملكة كانت تتضح في أقل من هذا الزمن، مع حسن الاستعداد والأخذ بجد في تحصيل الوسائل. والإكثار من التمرين).

ويقول للناشئين اقرءوا كتب الأدب، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر، وحركوا أفكاركم وخيالاتكم..).

متأخر ولا متقدم بقرب من هذا الكتاب في حسن الأسلوب وجمال المعنى ورونقه. وهو جدير بأن ينتفع به الأستاذ، ويقتطف منه التلميذ، وتزين به كل مكتبة في مشارق الأرض ومغاربها)[٧٢].

ص ٩٤

ونحن الآن في الرواق التاسع والعشرين، أحدث أروقة الأزهر – أقيم في سنة ١٨٩٨ بجوار الباب الغربي الكبير، وسمي الرواق العباسي لبنائه في عصر الخديو عباس – طبقات ثلاث:

في الثالثة ديوان المفتي وفي الثانية غرف فيها حجرتها الطبيب والصيدلي.

أما الأولى فقاعة ذات محراب، يغشيه رخام فيه رسوم نباتية. والأعمة الاثنا عشر من رخام أبيض تحمل قبة مزخرفة مبرقشة، والأرضية رخام أبيض، مساحتها نحو خمسمائة متر مربع تسع نحوا من خمسمائة جالس متربع. يتوافد المتفقهة إليها من كل حدب أمام منصة متواضعة.

قدم الشيخ إليها تحيط به هالة من "طريقة الحياة" التي صيرته مألفا للناس، ميمون الصداقة مأمون العداوة، مأمولا في الحالتين. داره مثابة لذوي الحاجة، وأخباره معلومات عامة للزملاء، وهم العليمون بأسرار كل منهم وإعلانه، كدأب أصحاب الحرفة الواحدة المتنافسين أو المتصادقين.

وللعلم عموما، والديني منه خصوصا، كرامة يتضافر المسلمون في الغيرة عليها، وأضواء تستلفت المنظار الخاص الذي ينظر به الناس إلى العالم فيكبره ويصغره في تناسب عكسي مع حبه للدنيا وزهده، أو كبر ماله وصغره، أو يسر حاله وضنكه.

والشيخ صوفي يخاف الترف فيفرق في الناس كل ما ازداد عن نفقته ويسكن دارا بالأجرة، تصحبه تعاليم الشيخ درويش إلى بيروت وباريس والقاهرة. إذا أقلع عن تدخين الشيشة في بيروت جعل ما كان ينفقه عليها صدقة. كل شيء في داره بسيط وسريره من حديد. وزهده في الطعام مشهور وهو القائل: (إن من ضعف الإنسان حاجته للطعام – لوددت أن أمكنني الاستغناء عنه).

---

(٧٢) أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني منهجان يدرسان الآن في السنتين الأخيرتين في كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية.

وهو يدفع للمحتاجين ثلث مرتباته أو ثلثيها، فله بحكم وظيفته مرتبات في مجلس الأوقاف الأعلى ومجلس الشورى ومجلس إدارة الأزهر. يقرر لها مستحقين ويعطي وكيله كشفا بهم ليوزعه عليهم – كما روى شاعر النيل حافظ إبراهيم.

***

والشيخ أعبد قومه لله يصفه الشيخ رشيد رضا، وقد لازمه في خصوصياته، فيشهد الله بعد ربع قرن من وفاته على: (أن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلما وصدقا وإخلاصا.. الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء في هذا العصر).

كان رضي الله عنه يختلف مع الفقهاء الذين يرون الخشوع والتدبر في العبادة من الأمور "المستحبة" ومع المفسرين الذين يرون أن أكثر ما في القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الإيمان خاصة "بالإيمان الكامل" ويرى أن هذه النظريات تفتح الأبواب للترخص وعدم محاسبة النفس على لوازم الإيمان.

والفقهاء يرون ذلك "فتوة" المتصوفة وهو يراه من "واجبات الإيمان".

يقول الشيخ محمد بخيت [٧٣] (المفتي اللاحق) (كنا دائما نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه).

صلاته صلاة متصوف فيها من خشوع الجامع مع الله، فإذا لم يتيسر الخشوع وكمال الخضوع لصلاة الظهر جمع بين الظهر والعصر. وابن عباس يحدث أن النبي ﷺ صنع ذلك.

يقف كالوتد لصلاة التهجد في منتصف الليل على قول أو في ثلثه الأخير – على قول – حتى أذان الفجر، إن مقيما وإن على سفر، حتى تعالت شكاة حافظ إبراهيم. وكان كثير الترحال معه. فقال: كان ينغص علي الليل بصلاته حتى آخر الليل. بل كان يضن علي بالنوم إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر فيطرق الباب ينادي (يا راقد الليل إلى كم تنام!).

---

(٧٣) كان من معارضي حركة الإصلاح التي يتزعمها الإمام. ولد سنة ١٨٥٤ – ١٢٧١ وتوفي سنة ١٩٣٥ – ١٣٥٤ وتخرج في الأزهر وولي القضاء الشرعي سنة ١٢٩٧ وله مؤلفات قيمة. وهو أشهر من تولوا الإفتاء بعد الأستاذ الإمام وسيرأس سنة ١٩٢٢ لجنة إحياء ذكرى الإمام بمناسبة مرور سبعة عشر عاما على موته.

وقد يدخل عليه رشيد رضا في داره غرفة لم يكن يظنه فيها، فيفاجئه مرآه (بيده كتاب ينظر فيه وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه تشرق بها وجنته وتنظف بها لحيته.. قلت ما هذا الكتاب؟ قال سيرة النبي ﷺ.. كان تأثير سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في قلبه يلي تأثير القرآن الكريم).

وكان عفوا، خصيصته الأولى خصيصة الشريعة الأولى وهي الرحمة: ومنها سماحته مع كتاب المقالات والشكايات ضده [٧٤] فإذا كدر الجحود الذميم صفوه، كانت خدماته للجاحدين ترضية لنفسه عن نفسه. لقد ذهب في يوم واحد إلى اللورد كرومر والخديو [٧٥] وناظر النظار ليقيل عثرة عدو لاذ به.

والذين لا يعرفون أسرار صنائعه يرون أخبارها بادية على وجوه العارفين.

تنبئك مرآته عن دخيلة نفسه: فتوة تشير إلى القوة التي تميز بها بين أترابه طول حياته. يرفض أن يقبل أحد يده ويصافح منتصب القامة رافعا رأسه. كأنما أحكم الخالق وضع الرأس بين الكنفين العريضين ليلفت النظر إلى جمال تكوينه! ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. سواء البطن والصدر واسع الصدر عظيم المنكبين، مدور الوجه واسع الجبين، أسمر اللون في وضاءة. كث اللحية أبيضها، له فودان أبيضان وعينان نفاذتان، كأنهما شرارتان، ترسلان البريق النفاذ إلى الأفئدة. ووجه كريم، حلو التقاسيم، يشيع الحنان والدفء من حوله. كأنه همسات رحمة، يفتر عن أسنان لؤلؤية منتظمة. جاء سامعوه يتلمسون وقع الدر من فيه. وهو يتريث إذ يلقيه بين أيديهم ليلتقطوه.

أما لباسه فكما وصفه الشيخ رشيد رضا: نظيف غاية النظافة (في ملبسه ومأكله وسرير نومه بدون أبهة. جبة وقباء من ذات الزيق للرقبة ليست زاهية اللون ولا لامعة كأصحاب الجاه ونعله كنعال الرجال العاديين لا العلماء).

***

---

(٧٤) قبض مرتبه في مرة في بيروت ثم عرف بموت والد لصاحب له فسلمه مرتبه. وبقي طاويا أياما لا يعرف ما يصنع، وإذا بحوالة قادمة من مصر بدين قديم بعث به مدين كان قد نسيه وكأنما جاءت لنجدته.

(٧٥) وأعداؤه عليمون بهذه الرحمة يقول لشيخ كبير كان يحقق معه في حضرة شيخ الأزهر لأنه قدح فيه (إن سوء نتيجة تلاميذك تكفي لفصلك ولكن يغرك مني أنني أعلم أن عندك أولادا كثيرين تغلب على قلبي الشفقة عليهم) وستقرأ كلمات عن رحمته بالناس وأبناء الكاشحين من أهل الأزهر فيما بعد

لا يجلس على الأرض بل يصنع صنيع الأوربيين فيجلس إلى المنصة. ولا يصنع صنيع الأزهريين في عصره فيهز جزعه إذا تلا القرآن.

يقول الشيخ الترمانيني الوافد من حلب ليتلقى عليه: (كانت توضع له منصة في وسط الرواق العباسي فيجلس عليها ويستقبل القبلة ويوضع بجانب المنصة كرسي مرتفع، فوقه فانوس كبير داخله أربع شمعات – والقبلة منورة بكثير من نور الغاز الذي يجري في أنابيب خاصة – وترى الجميع جلوسا متربعين وكأن على رءوسهم الطير فلا تسمع لهم صوتا ولا نحنحة ولا همهمة.. وكلهم آذان واعية وعيون محدقة إذا عرض لأحدهم إشكال فلا يجرؤ على أن يسأله في الحال وإنما يؤخره إلى ما بعد انتهاء الدرس، فإن الشيخ يجلس بعد انتهاء الدرس برهة قصيرة ليجيب على ما يرد من الأسئلة.

أما كيفية إلقائه فلا يحدر في كلامه ولا يسرع في إلقائه. كان كلامه مقطعا جملة جملة بلهجة فصيحة وبلاغة نادرة بحيث يتسنى للكاتب البطئ أن يكتب عليه ما يسمعه منه دون تصحيح. وكان جهوري الصوت. وكان في أثناء قراءته يشير بسبابته اليمنى ويضم باقي أصابعه إلى كفه ويبقى السبابة منصوبة ثم يقبل بيده اليمنى ويعيدها كأنه يستعين بها على الإلقاء..).

وأما السيطرة على الألباب، والجرس الذي يستولي على الأنفس، فيشهد بهما شيخان للأزهر لكل منهما قدم صدق يما يشهد به، فالشيخ المراغي – قاضي القضاة – يراه (مثلا عاليا في طريقة الإلقاء والتفهيم، وفي العبارة الصحيحة النافذة إلى القلوب. وكان دائرة معارف، يجد اللغوي فيها حاجته، والفقيه رغبته، والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آي القرآن على معارفهم. وكانت صرخاته المدوية منبها للغافل ومحركا للجامد).

والشيخ مصطفى عبد الرازق – وهو الجميل الوجه، العذب الصوت – يقول (وأشهد الله لقد كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخرها الله لعبقريته. وكان صوته العذب المؤثر من الجنود التي سخرها الله لعبقريته أيضا.

***

اكتظت القاعة الكبرى بالناس، وتراصف الرجال في ردهة الرواق حتى الباب، وفي الحضور شباب وشيب جاءوا لسماع معاني القرآن وألفاظه من فم المجود القديم. وفيهم من الزهر شيوخ كبار وصغار من أعيان البلاد ورجال القضاء والإدارة والتعليم ومجلس الشورى والجمعية الخيرية، وقد يكون فيهم – مجتمعين أو منفردين – سعد أو قاسم أو حسن عاصم، أو علي

فخري أو الهلباوي أو لطيف سليم، أو حسين رشدي أو عدلي يكن أو عبد الخالق ثروت، أو أحمد حشمت، أو فتحي زغلول، أو محمد فريد، أو عبد الكريم سلمان، أو محافظ القاهرة محمد ماهر باشا (والد رئيسين للوزارة فيما بعد علي ماهر باشا وأحمد ماهر باشا) أو ثلاثة سيرشحهم للقضاء في السودان: هم الشيوخ محمد شاكر ومحمد هارون ومحمد مصطفى المراغي الذي سيرأس المحكمة العليا الشرعية بمصر ويلي مشيخة الأزهر، أو أستاذان سيرشحهما للتدريس بكلية جوردون في السودان هما محمد الخضري وعبد الوهاب النجار، وسيملآن الدنيا علما في الجامعة المصرية، وقد تجد الحزب الوطني وقلمه، أو إسماعيل صبري [٧٦] المحافظ الشاعر، أو محمد صالح المستشار، أو المؤرخ الكبير أحمد تيمور، أو أستاذينا محمد زيد الإبياني وأحمد إبراهيم (أستاذي الشريعة في مدرسة الحقوق). أو الشيخ مصطفى العناني أو حفني ناصف وكلاهما صحح أصول الطبعة الأولى للمصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧هـ، أو شيخنا علي سرور الزنكلوني الذي ستلهب خطبه الأزهر سنة ١٩١٩ ويتخرج من مدرسته محمود شلتوت شيخ الأزهر. أو طه البشري وعبد العزيز البشري ولدي شيخ الأزهر، أو عبد الرحمن قراعة المفتي اللاحق، أو محمد عز العرب نقيب المحامين الشرعيين فيما بعد، ودائما نجد حافظ إبراهيم ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبد المحسن الكاظمي.

وأخيرا جاء فتى غض الإهاب هو مصطفى عبد الرازق ثم لحقه أخوه علي.

أما رشيد رضا فهو التلميذ صاحب (مجلة المنار) التي تنشر التفسير، وهو بذلك يدون بين المدونين ومثله علي ذو الفقار المستشار [٧٧] ومحافظ القاهرة فيما بعد، لكن رشيد رضا يعرض ما يدونه فيما بعد ليقول فيه الشيخ الكلمة الأخيرة فيدفعه إلى المطبعة.

والشيخ مكيث متريث. فسر سورة العصر في سبعة أيام وهي سورة ثلاثية الآي بين ثلاث مثلها هن أقصر سور القرآن. وهو سريع البادرة مليح النادرة. في طبعه ذلك المزاج الرفيع من

---

(٧٦) رجع من بعثته ثم تدرج في مناصب القضاء حتى صار مستشارا ومحافظا للإسكندرية، ولما عزم مصطفى كامل على إلقاء خطبة بالإسكندرية نبهت الداخلية على المحافظ بمنعها صيانة للأمن، فرفض منعها وتعهد شخصيا بصيانة الأمن. ونقل بعد ذلك وكيلا لنظارة الحقانية، فكان دائم التردد على مصطفى كامل في دار اللواء. وهو الشاعر الشهير ومراثيه لمصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ولفريد سنة ١٩١٩ من غرر الشعر، وكان صديقا حميما لمصطفى وفريد، توفي سنة ١٩٢٣ عن تسعة وستين عاما.

(٧٧) كان عضو يسار في دائرة الاستئناف مع سعد زغلول. وقيل إنه كان ثالثا لسعد وقاسم عندما رفضا التصديق على القانون الجديد، ثم انضم بعد قليل للأغلبية التي قبلت القانون.

الثقة بالله، التي تهب القوة وما يقابلها في الأنفس العظيمة وهو الرحمة، ومن الحلم والأناة اللذين يحبهما الله، ومن البديهة الحاضرة. لا تفرط الفرطات على لسانه إذا بغتته مسالة بل يتبادر ليشرح صدور الحضور:

دخلت درسه فتاة في نحو الثانية عشرة تتخطى الصفو لتسر إلى أبيها كلمات وخرجت. وبهت السامعون فسكت الشيخ هنية، ثم قال: (يظهر دي المرأة الجديدة اللي بيقولوا عنها في الصحف).

وقيل له يوما: فلان حفظ صحيح البخاري. قال: لقد زادت نسخة في البلد.

يجلس جلسة المتواضع الخاشع. وفي ذهنه تفاسير الطبري (٣١٠) وابن عطية (٥٤١) والبيضاوي (٦٨٥) وابن كثير (٧٧٤) وتفسير الجلالين [٧٨] (المحلي (٨٥٣) والسيوطي (٩١١) وأبي السعود (٩٨٢) والزمخشري [٧٩] يتوسع فيما أغفله السابقون ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث اللغة – فللغة درس مستقل – كما يختصر في الروايات التي لا يتوقف على فهمها إدراك معاني الآيات، ويتوكأ في بعض الأحايين على عبارة تفسير "الجلالين" أو غيره يقرؤها وينقدها إن استحقت نقدا. ثم يتكلم بما فتح الله عليه مما يحتاج إليه الناس للهداية والعبرة.

ولئن كانت ثقافات الحاضرين شتى ودرجات عملهم متباينة إن الشيخ مرب صقلته التجارب، تخاطب نفسه سامعيه بمعاني آيات تخاطب الفطرة والعقل معا، وهما لا يفتآن يتجددان ويجددان.

---

(٧٨) أولهما الجلال المحلي (٨٦٤هـ – ١٤٥٩ ميلادية) نسبة إلى المحلة إحدى حواضر الوجه البحري بمصر. اشتغل ببيع الحرير ثم انصرف للعلم.

وثانيهما الجلال السيوطي (٩١١ هـ – ١٥٠٥ ميلادية) نسبة لأسيوط إحدى حواضر الصعيد بمصر. له ٥٠٠ مؤلف أو أكثر.

(٧٩) سأله رشيد رضا إذ كان تلميذا بطرابلس، والشيخ يصطاف في لبنان – وهو مستشار – عن أنفع التفاسير فقال: الكشاف للزمخشري (لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة. وما فيه من نزعات الاعتزال لا يخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة) وظاهر أن أساس التفضيل أساس البلاغة.

ولكلام خالقهما – جل ثناؤه – إعجاز يسيطر على العقول بمعانيه التشريعية والتهذيبية وألفاظه وعباراته، بل حروفه وموسيقاها، تجد كل نفس فيه ما ترتجيه من البلاغة أو الفصاحة أو الحلاوة أو الطلاوة.

ومن تجاوب الفطرة مع القرآن فتح أمثل الناس فطرة القارات الثلاثة في ربع قرن من هجرة صاحبهم ﷺ. وقال سالم مولى أبي حذيفة يوم استحر القتل بالقراء يوم اليمامة (بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي) وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه وظل يحمل الراية حتى استشهد. ومن بعد هذه المعركة انطلق المسلمون بجيوشهم في الشرق والشمال والغرب والجنوب.

ونبع الهدى في القرآن زخار لا يتوقف ولا ينحصر.

سئل الإمام جعفر الصادق لم صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منهما، والقرآن لا يمل؟ فأجاب (لأن القرآن حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الأول، فكل طائفة تراه عصرا جديدا. ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه في كل مدة علوما غضة).

وطعم معه أبو حنيفة ذات يوم فرآه يرفع يده حمدا لله ويقول: (اللهم هذا منك ومن رسولك) قال أبو حنيفة: أجعلت مع الله شريكا؟ فأجابه: إن الله في كتابه يقول: [وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله].

قال الإمام الأعظم لأهل السنة: (لكأني ما سمعتها إلا الساعة).

***

ولئن ظهر من عمل إمام الشيعة وإمام أهل السنة أن القرآن أهدى إذ يسمع، وأجدى إذ يتلوه إمام، إن مدى الهدى لأوسع عندما يفسر للجماعة.

روى الشيخ رشيد رضا أنه اقترح على الإمام أن يضع تفسيرا للقرآن فأجابه:

(إن القرآن لا يحتاج لتفسير كامل من كل وجه فله تفاسير أتقن بعضها ما لم يتقنه الآخر، ولكن الحاجة الشديدة إلى تفسير بعض الآيات. ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل. ثم إن الكتابة لا تفيد القلوب العمى وإنما تفيد القلوب المتيقظة العالمة بوجه الحاجة إليها. ورأيي أن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام كل ذلك يساعد على فهم مراده).

وشتان ما بين اقتراح التلميذ واقتراح الإمام: الأول يتغيا التأليف العلمي المجرد، والثاني "يصنع" الأثر العلمي المرجو في أمة قوامها "عمل" المسلم بعقيدته والدعوة إليها.

وفي اجتماع الطلاب لتدارس أصل الإسلام، في القرآن بين يدي الإمام، إحياء لقوة يبددها التقاطع، وتعاضد في الاتجاه إلى الله. ومن ذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يفسر الآي. إذ تنزل. لصحبه مجتمعين في المسجد.

وشتان ما بين قراءة التفسير في كتبه، وإلقائه على أنفس متحابة مشرئبة للاستقبال والتلقي، تحملها أذواقها على التشوف للمعنى العظيم الذي يدلي به المفسر القدوة، كهيئة الصلاة الجامعة خلف إمام، أو الحجيج حول البيت الحرام. فإذا انفرط العقد تفرقت الجماعة بالفحوى الكريم تهتدي وتهدي به، وبالسلوك الذي عاهدت الله عليه، لتجعله مجعل عهود جديدة بين الناس.

والتدريس فعل يفعله صاحبه في قرائح سامعيه كما ينفعل بأحاسيسهم في إبانة فيكافئهم بأمور غضة كما يعبر الإمام جعفر الصادق، ومعان يضئ بها وجه الزمان.

وفيما أسلفنا من أسماء الحضور مصداق ذلك. فهؤلاء رجال قد تأثرت بهم الأجيال في أطوار تحتاج إلى تذكيرها بما ينبغي لها. وفي ذلك بعض قول الإمام (الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات) (٨٠).

دروس التفسير على هذا، بدايات جهاد جماعي جديد، كان الإمام – كدأبه – أول العاملين فيه.

كأنما كان رحمه الله ينظر بنور الله إذ أشار إلى أن العمر لا يتسع لتفسير كامل. فكذلك أرادت السماء. إذ لم تزد الدروس عن سنوات ستة من المحرم ١٣١٧ حتى المحرم ١٣٢٣ فقضى الإمام في جمادى الأولى من تلك السنة. ولم ينقص التفسير عن الأجزاء الخمسة الأولى إلا شيئا. وتوقف عند الآية ١٢٥ من سورة النساء [ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا].

أجل: توقف حيث شاءت السماء أن تحييه بما حيت به أبا الأنبياء:

---

(٨٠) وقول الشيخ المراغي عن أثر هذه الدروس [ترك بذور الإصلاح والتعليم الديني وتعليم علوم العربية وبذور إصلاح القضاء الشرعي وبذور إصلاح المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية].

أما تفسير الجزء الثلاثين فألقاه في بيروت والجزائر، كما قدمه ليدرسه تلاميذ الجمعية الخيرية الإسلامية.

ولم يقف رشيد رضا حيث وقفت الحياة بالإمام بل أكمل التفسير وأطلق عليه "تفسير المنار".

وفيما يلي نقول مما يأذن به المقام وما قد يجزئ في الدلالة على اتجاهاته بوجه عام في أمور بذاتها في العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع نستفتح منها بفاتحة الكتاب.

وقد وضعنا لها عناوينها:

obeikandl.com

وحدة الدين – أصول خاصة بالإسلام – أنواع الضلال

قد أرشدتنا هذه الكلمات الموجزة (وإياك نستعين) إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة. أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا. لأن طلب المعونة لا يكون إلا عمل عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى ألا ينجح فيه، فيطلب المعونة على إتمامه وإكماله. فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب من أحد المعونة على إمساكه. أما من وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده فإنه يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة في الاستقلال به.

وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار، ويفك إرادتهم من اسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ والدجالين، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصا وسيدا كريما ومع الله عبدا خاضعا، [ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما]..

(ومن هنا نعرف أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرصهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح، عن صراط التوحيد ناكبون وعن ذكر الله معرضون).

وفي تفسير: [صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين] يقول بين ما يقول (.. ومنها سؤال: كيف بأمرنا الله باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد. وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان. وأما الأصول فلا خلاف فيها.. فالاعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستو في الجميع. وأزيد هنا أن في القرآن من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالإسلام، كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار، وكبيان أن للكون سننا مطردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة، وكالحث على النظر في الأكوان للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التي يرتقي بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للإنسان، وكل ذلك مما امتاز به القرآن. والجواب في هذا أنه تكميل الأصول الدينية الثلاثة التي بعث بها

كل نبي مرسل وجعل بناؤها رصينا مناسبا لارتقاء الإنسان. أما تلك الأصول وهي الاعتقاد الصحيح ولو بالتسليم وعبادة الله تعالى وحسن المعاملة فهي التي لا خلاف عليها).

***

ويقول: والضالون على أقسام:

القسم الأول: من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر، فهؤلاء لم يتوافر لديهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل من الحس والعقل وحرموا رشد الدين. فإن لم يضلوا في شئونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما يطلب به نجاة الأرواح وسعادتها في الحياة الأخرى.. على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة وما به يسعدون في الدنيا والآخرة، فمن حرم الدين حرم السعادتين.. أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين في منازلهم، وقد يعفو الله عنهم. وهو الفعال لما يريد.

وأزيد في إيضاح هذا أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا في الآخرة على ترك شيء مما يعرف بهذه الهداية. وهذا معنى كونهم غير مكلفين. وعليه جمهور المتكلمين. لقوله تعالى في سورة الإسراء [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا].. وما يعطيهم الله تعالى إياه في الآخرة على حسب حالهم في الخير والشر والفضيلة والرذيلة يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء.

القسم الثاني: من بلغته على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعي إليه، انقضى عمره وهو في الطلب، وهذا القسم لا يكون إلا أفرادا متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعبا من الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا. أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى.

وينقل هذا الرأي مثله من أبي الحسن الأشعري. وعلى رأي الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل.

القسم الثالث: من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به أصول العقائد. وهؤلاء هم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول.. وإني أشير إلى

طرف من آثارهم في الناس: يأتي الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله تعالى وبالمصحف الكريم وهو كلام الله القويم أنه ما فعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية في وجهه فيأتيه المستحلف عن طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم الولاية فيتغير لونه ثم تضطرب أركانه ثم يرجع في أليته ويقول الحق.. فهذا ضلال في أصول العقيدة ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الأصلية لطال المقام.

القسم الرابع: ضلال في الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له.. ولنضرب لذلك مثلا الاحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعض مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب فيه الزكاة وظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة.

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم فتختل قوى الإدراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ويحل بها الشقاء.. ويسلط عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب وإن كانت ستلاقي نصيبها أيضا. فإذا تمادى بها الغي وصل بها إلى الهلاك ومحى أثرها من الوجود. لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا..

أما من الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة..

ثم يقول (فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الفصول التي يفصلها القرآن تفصيلا. فكان إنزالها أولا موافقا لسنة الله تعالى في الإبداع.

وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة. فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة حقيقة، لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولا ويأتي بعدها الأولاد.

وعلى مثل هذا الفحوى يجتمع العلماء:

يقول الجلال السيوطي:

(افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة لأنها جمعت مقاصد القرآن. لذلك كان من أسمائها أم القرآن وأم الكتاب والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال. قال الحسن البصري: إن الله

أودع علوم الكتب السابقة في القرآن. ثم أودع علوم القرآن في المفصل [٨١] ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة. فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري.. وقال البيضاوي وهي مشتملة على الحكم النظرية والأحكام العملية.. وقال الطيبي هي مشتمل على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين.. قال: وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة فإنها بنيت على إجمال ما يحيوه القرآن مفصلا، فإنها واقعة في مطلع التنزيل. والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سبق الكلام لأجله. ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق).

(٨١) حزب المفصل يبدأ من سورة محمد إلى آخر القرآن.

obeikandl.com

التكافل الاجتماعي

ويستمر الإمام في تقديم الدواء الذي تطب به السماء لأدواء عصره بالقاعدة الأساسية في الشريعة وهي أن تعيش "وتجعل" غيرك يعيش. لا أن تعيش "وتترك" غيرك يعيش أولا يعيش أو أن تعيش وحدك.

لنقرأ تفسير الإمام في سورة الفجر ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾.

يقول (وأنت ترى أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله، ولا يعرفون شيئا من شرعه يمنعهم عملا مما تسوق إليه شهواتهم.. والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عن أنفسهم فهم لا يبالون بما يفعلون، وإذا ذكروا الله فإنما هي حروف وأصوات لا تمتاز في شيء عن أصوات بقية الجمادات.

يقول (كلا بل لا تكرمون اليتيم) إلخ أي لو كان غنيكم لم يعمه الطغيان، وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان.. لوجدتم الشفقة تحرك قلوبكم إلى "التعاون" على طعام المسكين الذي لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله..

وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام فيقول ولم تطعموا المسكين، ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة "متكافلون" وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف. بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كل لما يأمر به وابتعاده عما ينهى عنه.

ثم إن إهمالكم أمر اليتيم وخلو قلبكم من الرحمة للمسكين لم يكن عن زهد في لذائذ الحياة الدنيا كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون له هم إلا بالتخلص من متاعبها، فيعكف على شان نفسه وينخزل من العالم ولا يهتم بشئونهم، بل إنكم مع ذلك تأكلون التراث أكلا لما. والتراث الميراث واللم الشديد كما ذهب إلى ذلك جمهور اللغويين. ولا حاجة لتفسيره بمعنى الجمع ثم ارتكاب التأويل. أي أنكم تأكلون المال الذي يتركه من يتوفى منكم وتشتدون في أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه. (وتحبون المال) مطلقا ميراثا أو غيره (حبا جما) أي كثيرا.. فشرهكم إلى المال وقرمكم إلى اللذات، وانصراف أنفسكم إلى التمتع بها وشعوركم بمقدار الحاجة

إلى المال في تقويم شئونكم، ثم قسوة قلوبكم وشلل وجدانكم إلى حد لا يألم لحال المسكين.. كل هذا دليل على أن ما تزعمونه من اعتقادكم بإله يأمركم وينهاكم وأن لكم دينا يعظكم زعم باطل).

ويعود إلى التفصيل والتنبيه في تفسير سورة البلد فيقول: (بعد أن أخبر الله جل شأنه بان الإنسان خلق في كبد لام الجاهل المغرور على استغراقه في غروره حتى كأنه يظن أن لن يقدر عليه أحد.. وبعد أن وبخ المرائين الذين ينفقون أموالهم طلبا للشهرة أراد الله أن يبين لهؤلاء وأولئك أنه سبحانه وتعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به: البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضر فهو مهدى ذلك إليهم. وهو القادر على سلبه منهم. وما أعجز من يفقده بصره ونطقه وعقله..).

***

ويقول في تفسير (وأما بنعمة ربك فحدث) (أي أنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير أوسع في البذل على الفقراء. وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة فإن هذا من الفخفخة التي يجب أن يتنزه عنها النبي ﷺ.

ولم يعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقد أو عروض ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاويا).

ويقول، ليحرك المستعلمين للمستبدين، في تفسير: (إن مع العسر يسرا) بعد (فإن مع العسر يسرا)، (أعادها بلفظها فقال: (إن مع العسر يسرا) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها. قد تقع أمم أو أشخاص في ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق. ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم.. ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود.. ومن هذا تجد الأمم التي تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد ألفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره، ولا تزال تحن إليه، وكلما طلب إبعادها عنه اندفعت بالإقبال عليه، فهذا نوع من اليسر وإن كان أشأ من العسر. ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة إليه؟..).

والشيخ يفسر الدين بأنه العمل بالدين.

يقول في تفسير: (ويمنعون الماعون) (ثم أعاد ذكر الوصف الذي يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال: (ويمنعون الماعون) والماعون كل ما يستعان به. فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى الناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يخشون منه ضرا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم.. أولئك لا تنفعهم صلاتهم.. فخاصة غير المصدق بالدين التي يمتاز بها عن المصدقين – هي احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة، وحب الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس.

فهل نجد نصا أصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين؟

فهل للمسلمين.. أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم ما يتلونه في هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين أو المصدقين، وليفعلوا عن الغرور يرسم هذه الصلاة التي لا أثر لها إلا في ظواهر أعضائهم، وبهذا الجوع الذي يسمونه صياما ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم.. فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتمسون رضاه في رعاية حقوق برياه. ويجعلون من الصوم مؤدبا للشهوة.. ثم يؤدون الزكاة المفروضة ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة!

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ أفلا ينتظرون إلى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلط الأمم عليها وانتقاصها أرضهم من كل جانب. "إن صورة الانتساب إلى دين لا تغني عن اتباع هديه الصحيح" الذي يدل عليه النص بعد التواتر في النقل وإجادة التدبر من العقل.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول الإمام (فمن الواجب على كل أمة تريد أن تنجو من الخسران أن تقوم بهذا الفرض وهو التواصي بالصبر.

فإذا طرأ على عوائد الأمة أو نزل بها من الحوادث ما يبغض إليها التناصح أو يحبب إليها التساهل في فريضة التواصي كان ذلك إنذارا بحلول الخسار، ولا يجوز لأحد أن يتعلل بذلك التساهل إذا وقع من الأمة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح في نصيحته، ولهذا يكفيه أن ينكر المنكر بقلبه. وبذلك ينجو من الخسران الأخروي إن لم ينج من الخسران الدنيوي كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصا أولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء..

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه). ولكنا نقول إنه لا يصح الاحتجاج به في ترك "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". فإن تغيير المنكر عند رؤيته شيء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح في معاملة الشخص المعين في حالة مخصوصة لشأن مخصوص.. ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم ينحصر في طلب تغير المنكر في هذه الحالة المحددة بل ذلك شامل للوعظ العام في المساجد والطرق والأسواق والمنتديات وفي أوقات الاجتماع الخاصة، وفي الحديث مع الأصحاب والأحبة وفي كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة. ومثل هذا يستطيعه كل واحد من الناس على حسبه. فلا يمكن لأحد أن يزعم أنه عاجز عن القيام بفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإطلاق.

قوم كانوا مع الله فكان الله معهم

يقول في تفسير قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيرون ما بأنفسهم). (ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

(هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها إلى ذروة العلى.. هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير في سببه كل عقل، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا: (قوم كانوا مع الله فكان الله معهم. جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسننه فأيدهم بنصر من عنده)..

وما كان.. بتصور أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها. هذه الأمة الإسلامية يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون ومع ذلك ترى بلادهما منهوبة وأموالها مسلوبة..

هذه الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات استبقاء لحياتهن، وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية..

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا.. وهذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئا من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة. كل واحد يود لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه على الذلة.. إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيمانا وثباتا، ويقولون في إقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل.. ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي.

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت).. (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

التأويل – التفيوض – استقلال الإرادة وحرية الفكر

والشيخ يبسط آراءه في الاعتقاد في غير موضع. ومن ذلك رسالة التوحيد – وقد ارتقى بها علم العقائد في العالم الإسلامي كما يقرر المؤرخون – وينادي بالرجوع إلى سلف الأمة حيث الوحدة الفكرية الكاملة في الأصول وإن اختلفوا في فروع. ينزهون الذات الإلهية عن المشابهة والجسمية والمكانية ويفوضون الأمر لله فيما يوهم التشبيه ولا يذهبون وراء ما يعنيهم من ظاهر النص. يقول:

(والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد: العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات سلاطين. والقرآن شاهد على كل بعمله.. وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به. فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد. وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض إلى الله في علمه. وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني).

ويعلن حرية المسلم الكاملة وعدم خضوعه أو خضوع تفكيره إلا للخالق وحده فيقول: (تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كان يعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها مشتقة من الإرادة الإلهية أو أنها هي – كإرادة الرؤساء المسيطرين أو إرادة موضوعة اخترعها الخيال، كما يظن في القيود والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء.. صار الإنسان بالتوحيد عبدا خالصا لله.. ولا يقربهم من الله إلا طهارة النفس من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء.. ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة.. طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.. أنحى الإسلام على التقليد.. بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر..).

وربما ساغ لنا أن نختم نقولنا بحديثه عن لغة التاريخ إذ تنطق بحتمية انتصار الإسلام.

(سطع الإسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلامه ويفقهوه، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا، وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراءه. لكن الله بالغ أمره. فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقوها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام دينا وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم. جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعاتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة. لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا إلى ديار المسلمين، وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية.. لم جاءوا وبماذا رجعوا..؟ استقر المقام بكثرة من هؤلاء في أرض المسلمين.. ثم وجدت حرية في دين وعلما وشرعا وصنعة مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه. ثم جمعت ما شاء الله من الآداب وانطلقت إلى بلادها قريرة العين..

ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى تيسيره. وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق برسالة محمد ﷺ، وإن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف عنه معنى إلا في صورة العبادة لا غير..

هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، جاء قوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا..).

فصل في (المفتي)

الفتوى إخبار عن حكم الله تعالى. وليست هي الحكم. وشرطها أن يجتهد المفتى رأيه ولا يقلد غيره.

ولما قال ﷺ لأمير الجيش الذي طلب إلى العدو النزول على حكم الله (إنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا. ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك) كان ينبه الناس على أن آراءهم "اجتهادات" تحتمل الخطأ والصواب.

وفي منهج محمد عبده جماع مناهج الأئمة. فهو يقول مقالة الشافعي: (كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم وعلى المجتهد طلبه) وأبي حنيفة (لي أن أجتهد كما اجتهدوا) ويعمل "بالمصلحة" وسد الذرائع كمالك ويقرر "حرية التعاقد" إلى على محرم كابن حنبل.

ويقول مقولة ابن تيمية: (كل ما احتاج إليه الناس في معايشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحظر عليهم).. و(الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساده مغمورا بالمصلحة لم يحظره أبدا).

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما) ويقول: (الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سلكت عنه فهو عفو).

فالإباحة هي الأصل الذي تبدأ منه اجتهادات الفقه، وفيها سعة للخلاف وفي الخلاف رحمة.

والشيخ قادم إلى وظيفة الإفتاء من منصة القضاء. حيث ميزان الحياة الواقعة للجماعة، والحاضر المتشوف إلى مستقبل أفضل.

والشيخ يمتاز من كل شيوخ عصره من ورجال الفقه المدني العظماء في القضاء بأنه يجمع إلى أصول المنهج الإسلامي العالمي وفروعها سنوات عشرة من دراسات القانون الفرنسي ومحاولات منع خطره على الجماعة الإسلامية فهو طلبة الأمة غير منازع.

***

سجلت فتاوى الإمام في دار الإفتاء في دفترين كبيرين في كل منهما خمسمائة فتوى ونيف. أحدهما خاص بفتاوى ومواريث والوقف فيها أغلب. والثاني خاص بفتاوى في سائر المسائل.

ولقد عمدنا إلى اختيار "متنوعات" من فتاوى الدفتر الثاني حيث العلاقة وثيقة بما هو جار في ساحات القضاء من أمور تحتمل الاجتهاد، حتى نشرك القارئ في امتحان المنهج الفقهي للإمام وهو في "حالة عمل" وفي امتحان خصائص "الرجل" إذ يواجه نوازل الحياة الواقعة، بأصول الفقه الإسلامي الديناميكية الميسرة، وبنزاهة المتصوفة الحريصين على الخير والتقدم دون ترهل حضاري.

وكأن وزارات الدول والأفراد، في مصر أو خارجها، كانوا في انتظار وصول الإمام إلى دار الإفتاء لتتقاطر عليها الاستفتاء من كل الجهات. ولا غرو. فالإمام عنوان الرحمة في الشريعة واقتدار فقهها على التوطئة للتقدم. وهو "المفتي" في كل مراحل حياته. منازعة مشهورة كاشتهاره، وآراؤه منشورة في كل مكان. وهو يعايش "الجماعة" ويهدي بعمله وبفقهه، وييسر الدنيا للناس ويحبب إليهم الآخرة.

استفتح دفتر الفتاوى الأول بنص تبليغ الخديو بنفسه إلى الإمام الأمر العالي بتعيينه (فضيلتلو حضرة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية – بناء على ما هو معهود في فضيلتكم من العالمية وكمال الدراية قد وجهنا لعهدتكم وظيفة إفتاء الديار المصرية وأصدرنا أمرنا هذا إلى فضيلتكم للمعلومية والقيام بمهام هذه الوظيفة. وقد أخطرنا عطو فتلو رئيس مجلس النظار بذلك. الختم عباس حلمي) ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ – ٢٤ محرم سنة ١٣١٧.

مع القضاء – أحكام الإعدام:

أما الدفتر السابق على الدفترين فآخره آخرة فتاوى الشيخ حسونة النواوي. وقد شاءت أسماء أن تكون طلبا لرأي المفتي في حكم بالإعدام وأن تكون أولى فتاوى محمد عبده طلبا لرأيه في حكم بالإعدام – مع ندرة الفتاوى في ذلك – لتسجل، للوهلة الأولى، لمحمد بعده فوارق كبيرة بينه وبين غيره وإن كانوا – كالشيخ حسونة – رجالا عظماء.

جاء في آخرة فتاوى الشيخ حسونة (سئل بإفادة من محكمة استئناف مصر مؤرخة ١١ محرم سنة ١٣١٧ – ٢١ مايو سنة ٩٩/ ٢٥٣ مضمونها.. وكذا ها هي أوراق القضية وعددها ٢٢ مرسلة مع هذا لإبداء رأي حضرتكم وإعادتها بالإفادة. (وأجاب) صار الاطلاع على إفادة

سعادتكم المسطورة أعلاه.. والذي يقتضيه الحكم الشرعي أنه متى ثبت القتل عمدا بالطريق الشرعي فلولي الجناية القصاص شرعا والله أعلم. والأوراق عائدة كما وردت).

أما الفتوى رقم ١ في دفتر الشيخ محمد عبده فأحيلت في ٢٩ من المحرم سنة ١٣١٧ – ٨ يونيو سنة ١٨٩٩ ومضمونها أن محكمة الاستئناف قضت ضد.. المتهم بقتل.. مع سبق الإصرار وحددت للحكم جلسة ١٥ يونيو فأجاب بتاريخ ٢ صفر بما نصه:

(اطلعت على قضية تهمة محمد علي حميد بقتل عبد الوارث السيد عمدا مع سبق الإصرار والترصد فوجدنا عليه كثيرا من القرائن التي تدل على ارتكابه جريمة القتل. لكنها مع كثرتها لا تكفي للحكم عليه بعقوبة الإعدام لأن اليقين لا يبلغ بها إلا الحد الذي يسوغ الحكم بعقوبة لا يمكن تدارك الخطأ فيها لو ظهر بعد ذلك لسبب من الأسباب.

خصوصا ودلائل سبق الإصرار غير متوفرة لجواز أن يكون خاطر الجناية ورد بذهن القاتل عند امتناع المقتول عن إعطائه النقود التي طلبها منه. ولا يسهل القطع بأنه كان عازما على قتله عند الامتناع. والأمر لوليه. والأوراق طيه عدد ٥٧).

وأول ما نلاحظه أن الشيخ حسونة أعلن "الحكم الشرعي عند ثبوت القتل" وأعاد الأوراق كما وردت ورد الإفادة ومعها ٢٢ ورقة ولم يطلع على القضية أو على الحكم المرسل إليه.

أما المفتي الجديد فطلب القضية واطلع على أوراقها كلها وعددها ٥٧ ورقة فالتزمت المحاكم بإرسال ملفات القضايا إليه لا مجرد الإفادة بالحكم وإرسال أوراقه. كما ناقش (القرائن) وتصدى لركن سبق الإصرار والترصد الذي استدعى الحكم بالإعدام ونبه على الشأن الخاص لهذه العقوبة. فصنع صنيعين عظيمين في تاريخ الفقه والقضاء في العصر الحديث.

أولهما: إقرار الأخذ بالقرائن لثبوت القصاص. فقد كانت المحاكم الشرعية السابقة على نظام القضاء الوطني تستلزم شاهدي رؤية أو إقرارا، للحكم بالقصاص. فإباحة المفتي للإثبات بالقرائن إصلاح قضائيي بتجديد فقهي، يقره ابن القيم وابن تيمية وغيرهم مسبوقين إلى ذلك بفقه الصحابة وقضائهم بالقرائن. ويفتح الأبواب للإثبات بالأدلة العصرية العلمية والطبية أو التي تستمد من واقع الناس.

ولقد لفت الإمام النظر إلى ذلك في تقرير إصلاح المحاكم الشرعية الذي قدمه في نوفمبر. ولو تقدم رجال الفقه بمثل هذا الإقرار للقرائن في الإثبات لبقي للشريعة سلطانها الذي ألغى من قانون العقوبات في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٧.

والثاني: أن الإمام كان قاضي نقض من أعلى مستوى في هذه القضية – إذ لفت نظر المستشارين إلى سبق الإصرار وتخلفه.

وما يزال هذا الركن مدار الاهتمام لقضاء المحكمة العليا في القضاء الجنائي، وبوجه خاص، لف النظر إلى وجوب القطع باستمرار سبق الإصرار والترصد في ذهن القاتل حتى يحدث القتل، وسيشهد عالم القانون بعد ثلاثين عاما عبد العزيز فهمي أول رؤساء محكمة النقض المدني – وثاني نقيب للمحامين – يثير زوبعة من جراء استمرار إصرار متهم يزعزع التعذيب شعوره.

ويمضي عام ويتكرر التعقيب نفسه مع رئيس عظيم لمحكمة الجنايات. في الفتوى ١٧٠ بتاريخ ١٣ ربيع أول سنة ١٣١٨ فنقرأ (سئل) بإفادة من حضرة قاسم بك أمين رئيس دائرة الجنايات الكبرى.. مضمونها أنه مرسل مع هذا.. المتهم فيها عازر منصور بقتل اسكاروس حنا عمدا مع سبق الإصرار.. لإبداء رأيه فيه وإعادتها للمحكمة قبل يوم الخميس المقبل وأجاب "اطلعت على أوراق الجناية.. ولم أجد القرائن بالجناية المثبتة للتهمة كافية في اليقين التام بثبوتها ولهذا لا تكفي للحكم على المتهم بالعقوبة المنصوص عليها في المادة ٢٠٨ عقوبات. وقد تسمح بالحكم بعقوبة تقديرية مما يلي تلك العقوبة متى صحت الدعوى والمرافعات على وجهها الشرعي. والله أعلم".

وتمضي شهور فيكتب إلى محكمة الجنايات الكبرى ورئيسها سعد بك زغلول في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ – ١٠/ ١٠/ ١٩٠٠ – في الفتوى ٢١٣ – (اطلعت على القضية المذكورة في ذفتى هذا ولم أر مساغا للحكم بالإعدام على واحد من المتهمين لأنه لا يوجد دليل يوجب الجزم بأن أحدهما بعينه هو القاتل والآخر شريك. فإن كان يراد الحكم عليهما معا فذلك ليس مذهب أبي حنيفة بل مذهب مالك في المتألبين على القتل والله أعلم).

والمعمول به قانونا مذهب أبي حنيفة [٨٢].

وفي ١٩ الحجة من نفس العام أجاب بصحة العقوبة...

---

(٨٢) قدم المحكوم عليهما طعنا بالنقض في الحكم ورفض الطعن في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٠ برياسة صالح ثابت باشا وعضوية دي هلس وقاسم أمين ويوسف شوقي واحمد زيور.

ويلاحظ – وقد راجعنا نحو ألف فتوى للإمام – أن الفتاوى التي طلبت إلى المفتى بصدد أحكام الإعدام بلغت من الندرة عددا قد ينم عن شيوع الاحتياط من تعقيبات دار الإفتاء.

***

obeikandl.com

في شئون الأسرة:

– في ٢ ربيع آخر سنة ١٣١٨ استفتته وزارة الداخلية في زوجات المحكوم عليهم أو إطلاق عصمتهن وتعذر الأسباب التي تكفي القاضي للفصل في ذلك. فأجاب إجابة شافية من فقه التقرير الشهير الذي توقع فيه هذه المشاكل بعينها، وأعد لها مشروع القانون. وأنهى إجابته بقوله: (وإني أرسل لسعادتكم هذا المشروع مع تصديق صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر ليرفع إلى الجناب الخديو ليصدر الأمر بمقتضاه، بناء على إفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي المالكية، وإفتاء مفتي الديار المصرية، وموافقة نظارة الحقانية دون إرساله لمجلس شورى القوانين لعدم الضرورة لذلك في الأحكام الشرعية...).

وكما صدقت آراؤه في تقرير صدقت في استعجاله استصدار القانون فستبقى محتوياته أكثر من ربع قرن حتى تصدر بها قوانين!

وفتاوى الشيخ كلها من مشكاة واحدة نضرب عليها أمثالا معلمة:

ص ١١٤

– سئل عن رجل حلف بالطلاق الثلاث أن زيدا فعل كذا وبسؤال زيد عما فعله أنكر فهل يقع الطلاق؟

(أجاب – لا يقع بهذا الحلف طلاق على الرجل المذكور. ولا عبرة بإنكار زيد الفعل المحلوف عليه. ما لم يقر الحالف بعدم إتيان زيد ذلك الفعل الذي حلف زيد أنه فعله. والله أعلم).

– سئل عن رجل تزوج بامرأة في إحدى البلاد وأراد أن ينتقل بها إلى مصر لضرورة معيشته وأبت زوجته أن تسافر معه فهل تجبر على مرافقته؟ (فأجاب إذا كان الزوج المذكور قد أوفاها عاجل صداقها وكان أمينا عليها ولا يقصد بنقلها إلحاق ضرر بها كان له حق نقلها معه إلى حيث يريد. وإذا امتنعت الزوجة من ذلك الانتقال تعد ناشزة لا نفقة لها ولا كسوة..).

– سئل عن رجل تزوج امرأة كلما أرادت أن تزور أبويها يمنعها زوجها ويدعي أن ذلك غير جائز شرعا. (فأجاب: لا يجوز للزوج أن يمنعها من الخروج لزيارة أبويها كل جمعة إن لم

يقدرا على إتيانها في منزلها. كما لا يجوز له أن يمنع أبويها من الدخول عليها لزيارتها كل جمعة.. وقال أبو يوسف.. وذكر في البحر..).

– سئل عن رجل تزوج بطليانية ورزق منها بولد يبلغ عمره خمس سنوات ثم طلقها وسافر خارج البلاد وبعد عودته وجده في حالة لا تليق بمقامه ويخشى عليه أن تغرس في نفسه أخلاقا وقواعد تنافي الآداب.. هل له أن ينزعه منها؟

(وأجاب: الحاضنة الذمية – ولو مجوسية – كالمسلمة يبقى الولد عنها إلى أن يعقل دينه وقدر على ذلك إلى سبع سنين لصحة إسلامه حينئذ. فإن خيف عليه أن يألف الكفر فينزع منها وإن لم يعقل دينه..).

– سئل في الدوطة عند المسيحيين (فأجاب: فما يلزم مبلغ المهر في ذمة والد الزوج إذا ألزم نفسه به فكذلك يلزم مبلغ الدوطة في ذمة والد الزوجة متى ألزم نفسه بها..).

– سئل من إبراهيم باشا حسن عند زواج ابنه علي إبراهيم رامز (الجراح الذي كان ينافس علي إبراهيم باشا) من ألمانية (فأجاب بأن زواج المسلم بالكتابية جائز شرعا).

– سئل. هل طالب العلم يعتبر شرعا عديم الكسب حتى ينظر في تعميم المعاملة بموجبه على كل طالب علم في الأزهر غير ذوي الماهيات والمرتبات؟ (فأجاب: المنصوص عليه في كتب المذهب أنه إذا كن الابن من أبناء الكرام ولا يستأجره الناس فهو عاجز. وكذا طلبة العلم إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولا يهتدون إليه. لا تسقط نفقاتهم عن آبائهم إذا كانوا مشتغلين بالعلوم الشرعية وفيهم رشد..).

متفرقات:

– تسأله وزارة المالية عن الإعلام الشرعي وقيمته (فأجاب: الإعلام الشرعي غير كاف في ثبوت وراثة.. لأنه لم يتضمن حكما شرعيا صادرا في دعوى صحيحة من خصم على خصم وشهادة بينة عادلة بل هو مجرد إشهاد).

– وتسأله عن رجل أحيا أرضا مواتا وصرف في إصلاحه أموالا كثيرة.. أرادت الحكومة أن تجري صورة المبايعة لواضع اليد لإثبات التمليك رسميا.. فهل، والحال ما ذكر، يسوغ لأحد أن يأخذه بالشفعة نظرا للعقد الصوري الحادث في هذا العام؟ (فأجاب: حيث إن إحياء الموات يعطي حق الملكية لمحييه خصوصا وقد وضع اليد على الأرض التي أحياها مدة ست عشرة سنة، وهي مدة يسقط بها حق المطالبة، فالأرض كانت بذلك ملكا صحيحا لمن أحياها. وواضع اليد على الأرض مالك لها قبل البيع بسبب الإحياء بوضع اليد، فتلك الصورة التي عبر عنها ببيع لا أثر لها في إكساب حق الشفعة).

– وسأله سائل من نابلس في فلسطين عن طوفان نوح فأجاب جوابا يهمنا منه قوله فيه: (على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفي شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها وينصرف عنها التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير مراد..).

– **ومن أشهر فتاوى الإمام تحليل الإيداع** في صندوق البريد. على اعتبار أن الحكومة تستغل أمواله على سبيل "المضاربة". وحسب الرأي مكانة في التطور الاقتصادي أن يكون مثالا لتجويز التعامل مع الحكومة دون اتهامها باستغلال شعبها كالمرابين. فالحكام في جملة أمرهم خدام الشعوب والحكومات أنظمة تتغيا أن يكسب الناس. وتعمل لهم بأموالهم أو أموال بعضهم.

– ومن أشهرها كذلك فتياه باتساع عقد المضاربة لوجه التأمين الذي استفتى فيه مما أطلق أجنحة التأمين في التعامل (السؤال.. رجل اتفق مع جماعة (قومبانية) [٨٣] على أن يعطيهم مبلغا معلوما في مدة معلومة على أقساط معينة للاتجار فيما لهم فيه الحظ والمصلحة، وأنه إذا مضت المدة المذكورة، وكان حيا، يأخذ المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة في تلك

---

(٨٣) مجلة المحاماة السنة الخامسة (١٩٢٥) ص ٥٦٣ رقم ٤٦٠ – مجلة نور الإسلام العدد التاسع من المجلد الأول ص ٦٧٩. والقومبانية السائلة في الفتوى هي شركة جرشام للتأمين.

المدة. فإذا مات في خلالها يأخذ ورثته أو من يطلق له حال حياته أخذ المبلغ المذكور مع الربح الذي نتج مما دفعه فهل ذلك يوافق شرعا؟

الجواب اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر يكون من قبيل "المضاربة". وهي جائزة – ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة. وإذا مات الرجل في إبان المدة وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ لورثته أو لمن يكون له حق التصرف في المال، أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور).

وإجراء المضاربة بالمال ابتغاء تعاون أمر القرآن به وحضت عليه السنة، ما دامت خالية من أسباب الفساد، منهج سليم في الاقتصاد، فيه من صيانة المصالح العامة والخاصة ما يستغرق خلافات المتفقهة وأقيستهم على عقود لا تصلح لقياس. وأساس نظرية التعاقد عند المسلمين حديثه ﷺ (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما) [٨٤].

واستفتي في الاستعانة بالكافرين فأجاب بما نصه:

(قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير المسلمين. وإن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أبنائهم وما فيه خير لهم، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي ﷺ وأصحابه. وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين إما كافر أو فاسق. فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم وأن يمضوا في طريقهم ولا يحزنهم شتم الشاتمين ولا يغيظهم لوم اللائمين فالله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر).

---

(٨٤) يخرج الحجوي (١٣٧٦هـ) في كتابه الفكري السامي المسألة تخرج القاضي سعيد بن محمد بن محمد العقباني وهو فقيه مالكي ولد بتلمسان سنة ٧٢٠ هـ ١٣٢٠م وتوفي سنة ٨١١ هـ – ١٤٠٨م فيما سمي (بقضية تجار البز مع الحاكة) بمدينة سلا وجملة أمرها (أن تجار البز رأوا توظيف مغارم كثيرة عليهم. فاتفقوا على أن كل من اشترى منهم سلعة دفع درهما عند رجل يثقون به، وما اجتمع من ذلك استعانوا به على الغرم. وأراد الحاكة منعهم بدعوى أنه يضر بهم وينقص من رحهم. قال العقباني = فحكمت بإباحة ذلك بشرط ألا يجبر واحد من التجار على دفع الدرهم).

فالدرهم في القضية قسط اختياري للتعاون وليس لغيرهم أن يتضرر من تعاونهم، ولو كانوا خياطين تضررهم أسعار القماش إذا ارتفعت.

واستشهد بابن خلدون وبعمل السلف من عهد عمر إلى عبد الملك بن مروان كما استشهد بالأحكام السلطانية للماوردي.

واستفتاه مسلمو الترنسفال [٨٥]:

في البقر يضربه نصاراهم بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله – هل يحل لحمه؟ فأفتى بحل ذلك والله يقول (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم).

قال الشيوخ إنها هي الموقوذة المحرمة وقال الشيخ إن الموقوذة هي ما ضرب بشيء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت. وهذه ذبحت قبل أن تموت.

واستفتوه فيمن يلبسون القبعة كالأجانب:

فأجاب (أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج على الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفرا. وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك).

واستفتوه في صلاة الشافعية خلف الحنفية:

فأجازها (وإلا كان لأصحاب كل مذهب مسجد كالمذاهب في النصرانية لكل مذهب كنيسة).

البدع:

وفي مقال كتبه الشيخ في الثلاثين من عمره عنوانه (إبطال البدع) في عدد الوقائع المؤرخ ٣٠ نوفمبر ١٨٨٠ = ٢٧ ذي الحجة ١٢٩٧ تعليقا على فتوى شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية بتحريم ضرب الطبول في المساجد (الباز) أبلغتها وزارة الأوقاف إلى المساجد (.. هذه طلائع خير تبشر بحياة الشريعة الحقة.. ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الأوقاف أن المنع خاص (بالباز) وطريقة السعدية أو بالطبل على الخصوص بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشا على مل أو إخلالا بحرمة مسجد. ولا يخرج من حكم المنع أيضا ما يفعل من

---

(٨٥) كانت الفتوى الترنسفالية وسيلة لحملة من الخديو وصحفه لتأليب الرأي العام في مصر والإمبراطورية العثمانية ضد الإمام.

نحو ذلك بأضرحة الأولياء رضي الله عنهم. وإن لم تكن مساجد لمنافاتها للأدب الواجب في حقهم. على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بالآلات لهو على العموم..

ويشمل حكم المنع أيضا الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والأربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعا..).

الدوسة:

وفي مقالين معاصرين عنوانهما (إبطال الدوسة) بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٨٨١ = ١٢٩٨هـ وتاريخ ٣/ ٤/ ١٢٩٨ يعود للكلام عن البدع فيقول (ومن أفظع تلك البدع بدعة الدوسة وهي أن ينطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر ثم يعلو على ظهورهم أحد "المشايخ" بحصان يدوسهم واحدا بعد واحد حتى ينتهي إلى آخرهم! وهم مسلمون من أهل الإيمان قد أقر الله بتكريمهم.. وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم وقد نهت الشريعة عن إهانة أجساد الأموات فضلا عن الأحياء!..

أولا يعلم الجاهلون أن مصر وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما يكاد يذهب بهجة الشريعة، وأن العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفا من سطوة الظالمين؟ أما الآن.. فلا يخش العلماء لومة لائم في إنكار المنكر..)

تعدد الزوجات:

وفي مقال معاصر لذلك نشرته الوقائع بتاريخ ٧/ ٣/ ١٨٨١ عن حاجة الإنسان للزواج يمهد للكلام في اليوم التالي عن حكم الشريعة في تعدد الزوجات نجد آثاره بعد نحو ربع قرن فيما كتبه قاسم أمين وبعد نصف قرن في حركة النهضة النسائية.

يقول الإمام (قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة. قال تعالى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة).. فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل.. من ذلك أن النبي ﷺ كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الأكتاف حفظا للعدل. فلما كان عند إحدى نسائه سأل في أي بيت أكون غدا؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة فأذّن له في المقام عندها مدة المرض. فقال هل رضيتن؟ فقلن نعم. فلم يقم في بيت عائشة حتى

علم رضاهن.. فقد روى في الصحيح أن آخر ما أوصى به ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه: (الصلاة صلاة. وما ملكت أيمانكم. لا تكلفوهم ما لا يطيقون. الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم – أي أسراء – أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله). وقال (من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى – وفي رواية لم يعدل بينهما – جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) وكان يعتذر عن ميله القلبي بقوله: (اللهم هذا (أي العدل في البيات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك) أي الميل القلبي. وكان يقرع بينهن إذا أراد سفرا.

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيتوتة بإجماع الأئمة. وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم.. وقالوا إن العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعا.. وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضي وجب نهيه وزجره فإن عاد عزر بالضرب لا بالحبس، وما ذلك إلا محافظة على المقصد الأصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها.

أفبعد الوعيد الشرعي وذلك الإلزام الدقيق الحتمي.. يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحقيقه؟..).

ويختم الشيخ المقال بقوله: (فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصاد على واحدة إذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فهي مقيدة بآية فإن خفتم، وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن إلى الأعمال غير اللائقة ولا يحملوهن على الإضرار بهم وبأولادهم ولا يطلقونهم إلا لداع ومقتض شرعي..).

***

وفي عدد مارس سنة ١٩٢٧ من المنار نشر الشيخ رشيد رضا أنه وجد في أوراق الإمام الفتاوى التالية وأضاف أنه ينشرها لتصدي الحكومة لتقييد التعدد: (السؤال الأول: ما منشأ تعدد الزوجات في بلاد العرب قبل بعثة النبي ﷺ.

السؤال الثاني: على أي صورة كان الناس يعملون بهذه العادة في بلاد العرب خاصة.

السؤال الثالث: كيف أصلح نبينا هذه العادة؟ وكيف كان يفهمها). وذكر أن الإمام قال في جوابه عن السؤال الثالث بعد بسط رأيه.

(فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات ووقف عند الأربعة ثم إنه شدد الأمر على المكثرين إلى حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة.

وأما المملوكات فقد جاء حكمهن في قوله تعالى: (أو ما ملكت أيمانكم) "النساء الآية ٣" وهو إباحة الجمع بينهن، وإن لم يكن من الرجل عدل فيهن لان المملوكة لا حق لها. ولمالكها أن يتركها للخدمة ولا يضاجعها البتة. وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز للرجل أن يأخذ من الجواري ما يشاء بدون حصر. ولكن يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك: فإن الكلام جاء مرتبطا بإباحة التعدد إلى الأربعة فقط وأن الشرط في الإباحة التحقق من العدل. فيكون المعنى: أنه إذا خيف الجور وجب الاقتصار على الواحدة من الزوجات أو أخذ العدد المذكور مما ملكت الأيمان فلا يباح من النساء ما فوق الأربع على كل حال. ويباح الأربع بدون مراعاة للعدل في المملوكات دون الزوجات لأن المملوكات ليس لهن حق في العشرة على ساداتهن..) [٨٦].

والشيخ يضيف إلى ما فات قوله: (أما جواز إبطال هذه العادة (أي عادة تعدد الزوجات) فلا ريب فيه. أما أولا فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتما وثانيا قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد وحرمانهم من حقوقهن في النفقة والراحة ولهذا يجوز للحاكم وللقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعا للسبب الغالب – وثالثا: قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم..

ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجواري صيانة للبيوت عن الفساد.

نعم. ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتي منها بذرية فإن الغرض من الزواج التناسل. فإذا كانت الزوجة عاقرا فليس من الحق أن يمنع زوجها أن يضم إليها أخرى، وبالجملة فيجوز الحجر على الأزواج عموما أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضي ولا مانع من ذلك في الدين البتة. وإنما الذي يمنع ذلك هو العادة فقط).

---

(٨٦) في هامش المنار (هذا هو المنصوص في فقه المذاهب المشهورة. ولكن قالوا إن ما يجب للزوجة يستحب للسرية. وفي كتب الحنابلة نقول تفيد أنه يجب على السيد أن يحصن مملوكه ومملوكته بالزواج بشرطه).

***

ولم يخالف الشيخ الناس إلى ما ينهاهم عنه. فقد اقتصر إنجاب زوجته على بنات ثلاث وولد مات فقر عينا بها وبهن وصحبها في منفاه حتى توفاها الله، فتزوج ورزق بنتا رابعة وبقيت زوجته وحدها معه حتى وفاته.

وجرى أصحاب الإمام على أثره فدلوا على الوحدة الفكرية الكاملة في أخص شئونهم فسعد زغلول لم ينجب ولم يتزوج غير أم المصريين. وقاسم أمين والهلباوي وحسن عاصم وعلي فخري وحسين رشدي وعدلي يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود ولطفي السيد ومحمد يوسف وعثمان يوسف وهيكل وطه حسين ومنصور فهمي ومحمود عزمي والشيوخ محمد مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق وعلي سرور الزنكلوني وعلي عبد الرازق ومحمود شلتوت لم ين لواحد منهم في عصمته أكثر من زوجة واحدة.

وسبق رفاعة رافع الجميع فتزوج بنت خاله وكتب لها وثيقة أنه إذا تزوج عليها طلقت. ولم يتزوج غيرها بل صاحبته طول حياته.

التصوير والنحت:

وللشيخ بيان أشبه بالفتوى يبيح بها التصوير والنحت في مقال كبير عن رحلته إلى صقلية [٨٧] إليك فقرات منه فيها "صورة " فتوى:

(لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج.. هل تدري لماذا؟ إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصا شعر الجاهلية وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فإن الرسم ضرب من الشعر المرئي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم قد حفظت من

---

(٨٧) يظهر حنين الإمام إلى الماضي العظيم لصقلية في مقاله. لقد فتحها للمسلمين "قاضي المسلمين" أسد بن الفرات على رأس الأسطول العربي. وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وبقيت للعرب السلطة نحو ثلاثة قرون وهي – كالأندلس – رأس جسر غزا به العرب عقل أوربا. منذ سقطت بلرم سنة ٨١٣ للميلاد في يدهم وامتد نفوذهم إلى روما سنة ٨٤٦ وبقوا في صقلية حتى سنة ١٠٩٢. وأنشئت جامعة نابولي لترجمة العلوم العربية.

أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة من أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية.

يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم. وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها عن بعض. ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا يصورونه مثلا في حالة الفزع والجزع. والخوف والخشية. والجزع والفزع مختلفان في المعنى، – ولم أجمعهما هنا طمعا في جمع عينين في سطر واحد لأنهما مختلفان حقيقة – ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك. أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك. إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك رأيت أسدا، تريد رجلا شجاعا، فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا. فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها..).

ثم ينتقل من البلاغة إلى الفقه "بتصوير" سؤال وإصدار "فتوى".

(ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ما حكم الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئآت البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية هل هذا حرام أو جائز أو مندوب أو واجب؟

فأقول لك: إن الرسم قد رسم، والفائد محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان. فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة فإذا أوردت عليه: (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين: الأول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم من صورته من الصالحين. والأول مما ينقضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه. والمصور في الحالتين شاغل عن الله أو ممهد للاشتراك به، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات.. وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضوع لنزاع.. أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه.

وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين. لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل.

على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها! وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء.. لاشك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد وبين صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية..).

obeikandl.com